بسم الله الرحمن الرحيم

ندوة صناع الحياة
الاثنين ٤ . ٢ . ٠٨

الوحدة والتعصب

نظرة عامة على الوضع سياسيا واقتصاديا .
تأثيرات الوضع على فكر الشباب .
دور الشباب في قيادة الرأي العام نحو الوحدة .
دور الهيئات والمؤسسات الرسمية والأهلية في توجيه الشباب فكريا .

لا أحد يحب ولا يتمنى دوام هذا الحال الذي نكابده اليوم وهذا الانقسام والشقاق الذي أصاب المجتمع الفلسطيني.. في الشارع السياسي .. وفي المؤسسات الوطنية والأهلية .. بل وفي العائلة الواحدة .. ولكن علينا أن لا نشعر بالإحباط . وعلينا أن نعلم أن هذه المرة ليست المرة الأولى ولا الوحيدة في تاريخ فلسطين التي ينشق فيها الناس إلى فريقين . ولكن هذه المرة صعبة ومؤثرة وعويصة على نحو غير مسبوق . وكان لدينا ذات حين من عشرينيات القرن الماضي حركة وطنية وفي مقابل الحركة الوطنية نشأ ما كان يعرف بحزب الزراع . وكان لدينا ذات حين من ثلاثينيات القرن الماضي أيضا المجلسيون الموالون للمجلس الإسلامي الأعلى وفي مقابل المجلسيين نشأ ما

كان يعرف بالمعارضين . أما في سبعينيات القرن فقد نشأت في إطار منظمة التحرير الفلسطينية فصائل مختلفة وطنية وماركسية يسارية متعددة توزعت بينها الناس حسب ثقافاتهم وعلاقاتهم وأمزجتهم وظروفهم ونشأت في المرحلة الأحدث فصائل إسلامية .

وليست جميع هذه الاتجاهات والمدارس الفكرية والتنظيمية متساوية في نصيبها من الحق والصواب . وعندما تحدث الأخطاء والمصائب والمحن التي تصيب الجماعة وتصيب الوطن فليس صحيحا أن الجميع يتحملون المسؤولية عنها على قدم المساواة . فهناك مصيب وهناك مخطئ ، وهناك من هو أقرب للحق ومن هو أقرب للباطل . ولكن المشكلة في انقسام الجبهة الداخلية أن قادة الفصائل والأحزاب هم أشبه بمن يقودون حافلات أو شاحنات مليئة بالناس . فإذا وقع الاصطدام بين هذه الحافلات أو الشاحنات . أيا كان الذي ارتكب الخطأ ، وأيا كان نوع ذلك الخطأ . فإن الخسائر تقع في الركاب أي في الناس بالإضافة إلى من هم على عجلة القيادة .

وفي وضعنا الفلسطيني خاصة علينا أن نتذكر مسألة ذات أهمية خاصة وهي أن العدو يحشد ضدنا قوى هائلة فلا أقل من توحيد جميع القوى الفلسطينية ، لأننا حتى لو حشدناها فهي لن تكون كافية . ونحن بحاجة إلى حشد المزيد من القوى العربية والإسلامية . علما أننا إذا لم نكن قادرين على ضبط جبهتنا الداخلية وعلى رأب الصدع وتوحيد الصف الفلسطيني فسنكون أعجز عن تجميع القوى العربية والإسلامية المطلوبة لإحداث توازن نسبي بين قوانا وقوى أعدائنا .

ومنذ انقسام ساحتنا الفلسطينية فشلت حتى الآن جميع الجهود التي توجهت إلى محاولة المصالحة بين الفصيلين الكبيرين حماس وفتح ، اللذين يشكلان معا غالبية مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني .

وترتبت على ذلك الانقسام آثار سياسية واقتصادية خطيرة . ولئن كانت تلك الآثار بالنسبة لمجموع الشعب العربي الفلسطيني تعني فرصة ثمينة للحلف الصهيو . أمريكي تغريه بانتهاز فرصة الانقسام في الشارع الفلسطيني لتصفية القضية الفلسطينية من خلال حشر المفاوض الفلسطيني . كائنا من كان . في الزاوية ، والضغط عليه بشدة لأن موقفه ظاهر الضعف ، وإذا كان الانقسام يعني فيما يعني استنزاف الجميع معنويا وتشكيك الجميع في الجميع فإن ذلك الاستنزاف سيؤدي إلى ابتعاد شرائح عديدة من الشباب خاصة عن العمل السياسي والنضالي عامة لأن التشويه لحق بالجميع . كذلك عوملت مناطق الضفة والقطاع دائما على أساس كونهما سوقا للمنتجات الإسرائيلية البائرة من الدرجة الثالثة التي تفتقد شروط الصحة والتغذية السليمة وحورب الاقتصاد المحلي في الزراعة والصناعة حربا طاحنة خبيثة . أما الوضع الاجتماعي الفلسطيني بدوره فاجتهد الاحتلال في تفجيره عن طريق تشجيع النعرات وبث الدعايات المفسدة التي تحرض الفلسطينيين بعضهم على بعض : وإذا كانت الأمور على هذه الشاكلة بالنسبة لجميع الفلسطينيين في الضفة وفي القطاع وفي أراضي ٤٨ فإن آثار ذلك الانقسام على قطاع غزة خاصة تمثلت في حصار مطبق تشارك فيه قوى معادية دولية وقوى مغتاظة إقليمية . وكان هذا الحصار المطبق من الإحكام والقسوة بحيث انقلب إلى معركة حياة أو موت بالنسبة للمليون ونصف المليون فلسطيني تصيب فلسطينيي قطاع غزة بسببها

شدائد ومحن ومصاعب تتفاقم يوما بعد يوم وتشتد قبضتها على خناق الجميع . وبلغت حرب الإخوة داخل هذا الحصار حد استخدام العبوات المتفجرة في الأسواق وعلى الشوارع وأسفل السيارات . وهكذا أخذ الانقسام الأهلي مضافا إلى الحصار أشكالا عديدة من المواجهات المخزية منها الصدام الإعلامي والتراشق بالإشاعات وبالقذف والتشهير تكرارا وبينما كان ذلك كله دائرا على أشده أصيب أهالي قطاع غزة بالموت وبالجوع وبالفقر المدقع وبعدم الاستقرار الأمني وبالقلق العام على المستقبل . وأخيرا بحدوث الانفجار التمويني ، وكسر الحصار عن طريق الالتجاء إلى الناحية التي يعرف هؤلاء المحاصرون أنها الأولى بهم والأرأف والأرحم وأنها منفذهم الوحيد إلى العالم وهي الشقيقة الكبرى مصر التي لم يخطر ببال الفلسطينيين أن يدخلوا حدودها مقتحمين أو معتدين بل مستغيثين مناشدين حس الأخوة وصلة الأرحام ولم يخطر ببالهم أن الانفجار التمويني سوف تصحبه هذه الآثار الجانبية التي لا تصدق .
سوف تتوالى حتما آثار هذا الحصار الإجرامي على قطاع غزة وهو حصار ليست له سابقة وحرب من نوع لم يعرفه تاريخ المستعمرين .

لقد كان لهذا الوضع وهذه المصاعب والمحن تأثير بالغ على تفكير شريحة الشباب . تلك الشريحة الحية الحساسة من جسد الشعب . وأول ما نلاحظه أن شريحة الشباب تتميز بالقلق من ناحية تطلعها إلى المستقبل . وهذا القلق مضاعف عندنا لأن انعدام الفرص من ناحية مصحوبا بالغموض الذي يلف المستقبل القريب والبعيد وحالة التمزق الوطني والتراشق بالسباب والتشكيك بالجميع وذلك عدا الحصار والإغلاق المزمن وحرب التجويع والترويع التي

يتعمد العدو إدامتها دون توقف تؤثر في الروح المعنوية للشباب ذكورا وإناثا الذين قد يبدؤون في التساؤل بينهم وبين أنفسهم : متى سأجد عملا ؟ متى سيكون لي مصدر رزق ؟ متى سيصبح لي زوجة وأطفال ؟ متى سيكون لي بيت ؟

إن فقدان فرصة العمل في حد ذاتها تسلم الإنسان إلى فراغ يصبح ميدانا فسيحا للهواجس والإحساس بالسخط وقلة القيمة والانخراط في العادات الذميمة . وفي كل مجتمع يخوض صراعا كالذي يخوضه مجتمعنا الفلسطيني عامة وفي قطاع غزة خاصة هناك اتجاهان اثنان قد يبرز أحدهما أكثر من الآخر في بعض الشخصيات وقد يبرز الاثنان معا في وقت واحد لدى شخصيات أخرى . فالشباب هو المرحلة من العمر التي تدب فيها القوة والعنفوان في العروق والقلوب ويتزود فيها الإنسان بذخيرة من العلم ويزداد لديه الشعور بقدرته على تحقيق أمانيه وغاياته . فالبعض يتلمس الفرص التي تساعده على بناء كيانه الذاتي ويكون تركيزه على الذات غالبا على أي شيء آخر . ومن الشباب من يتغلب لديه الحس بالجماعة وبالوطن العزيز فيهب نفسه بكليتها ويندمج في جماعة من الناس وقد يضحي بروحه من أجل قضية المجموع . وقد يتوازن الاتجاهان في نفوس فريق ثالث فيكون حريصا على نفسه وعلى المجموع معا ويمضي في الطريقين محاولا أن يكون نافعا في كل مجال أي نافعا لنفسه وللمجموع . ومعظم الشبان لديهم تفكير ذاتي يخالطه أيضا تفكير وطني في قضية الوطن وفي أوضاع المواطنين عامة . لأن الشباب عامة لا يخلو من النبل والشجاعة في فعل ما يخطر بباله من أفكار مثالية .

ونحن نسجل مع ذلك أن هناك فئات من الشباب يغلب عليها القلق على المصير الشخصي حتى يبتعد بها عن القضية العامة . وقد ينزلق الشباب الذين يبالغون في الاهتمام بالجانب الذاتي والمصلحة الشخصية منزلقات سيئة تتجه ببعضهم إلى السقوط والضياع وببعضهم إلى الرحيل والنزوح عن الوطن وببعضهم إلى كراهية نفسه وأهله ومجتمعه وكل شيء . ونحن نرى أن ذلك كله مفهوم وإن لم يكن مطلوبا ولا على حق . فهو مفهوم لأن من شان الضيق أن يعزز الأنانية والخوف على المصير وهو ليس على حق لأن الأزمة عامة تطحن الجميع كبارا وشبابا وأطفالا ذكورا وإناثا من جميع الطبقات والشرائح . وعلى كل إنسان في موقعه أن يتحلى بالصبر وبالصمود وبالبحث عن مخرج جماعي من منطلق أننا على حق وأن قضيتنا عادلة . وأرى أن الشباب يجب أن يكونوا الطليعة والقيادة في حفظ التماسك الوطني والمجتمعي وفي تذليل ما يمكن تذليله من الصعاب . فالشباب أمامه المستقبل بطوله ويجب أن يلهمه ذلك صبرا يفوق صبر أولئك القلقين من ثقل أحمالهم وأحمال عيالهم أو الجزعين من تربص الموت بهم عن قريب والخشية أن يتركوا من خلفهم ذرية ضعافا . والشباب يملك في يده العلم ومناهجه الفعالة المساعدة في حل المشكلات ، وعليه أن يتقدم بشجاعة نحو دراسة تلك المشكلات المحلية التي يزيد في تعقيدها الحصار والعمل المضاد من قبل العدو . لقد أعجبني كثيرا ما حدثني به زملاؤكم من صناع الحياة الذين ذهبوا في تفكيرهم نحو تسخير علمهم وعلم أساتذتهم المختصين في أبواب مفتوحة للتنمية في مجالات الزراعة والمياه وتربية الماشية مثلا . لقد لاحظوا المشكلات العديدة التي تحيط

بهذه المجالات وحاولوا أن يدرسوها ويتدارسوا مع أساتذتهم سبل تذليلها . وهذا مثل من جملة أمثلة أخرى .

الأبناء الأعزاء :

لا يخفى عليكم أن مشكلتنا رقم (١) اليوم هي مشكلة الفصام الواقع في مجتمعنا الفلسطيني بين نهجين سياسيين متضادين ثم انعكس انقساما بين القواعد الشعبية الواسعة . وولَّد طابع الحدة في المشاعر والتنافر في العواطف والتنازع في الأعمال . إن لدينا اليوم انقساما خطيرا كما قلنا سابقا : بين الأحزاب والتنظيمات فرقاء الساحة السياسية ، وبين الأجيال بعضها وبعض ، وبين الداخل والخارج ، وبين الطوائف والانتماءات العشائرية . ولدينا اليوم حريق هائل تتأجج له نار ظاهرة يعلو لهيبها وتشارك فيها الأجهزة الحكومية في صورة الملاحقات والزج في السجون وتعذيب أصحاب الانتماءات المغايرة وله أيضا نار مضطرمة في الخفاء ، نتعرف إلى مظاهرها المفجعة وتشارك فيها القطاعات الشعبية والمؤسسات الأهلية في صورة القطيعة وإضمار العداوة وسوء الظن والتجاذبات في الشوارع والأحياء .

لذلك كله أبارك سعيكم الطيب نحو توسيع كتلة الشباب الذين يعملون من أجل إحلال الوفاق والتعايش بدلا من النزاع والحرب الأهلية . وأعتقد أن أول خطوة على طريق الوفاق هي الإقرار بوجوب قبول الآخر المختلف عنا . وإنه لأمر ذو بال وذو دلالة قوية أن يخاطبنا القرآن الكريم في ثلاثة مواضع مهونا علينا أمر أولئك الذين يخالفوننا الرأي والاجتهاد فيقول : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . ويقول : ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ويقول :

ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير . فالاختلاف في الرأي وفي الموقف إذن سنة إلهية كونية .

فمهما كنا على يقين من الحق الذي نتبعه والرؤية التي نراها فإن علينا أن نهادن المخالفين عن جادة الصواب ولو مؤقتا ، لأن الله سبحانه وتعالى سينصر الحق من خلال طرقه التي لا تخطر ببال البشر .

ولكن التسليم بأن الاختلاف بين الفرقاء أمر غير مستغرب وأنه يجب أن يعامل بالصبر والأناة وترك أمره لله في نهاية الأمر لا يعني أن ذلك ينطبق على الخارجين على الجماعة وأهدافها والبائعين أنفسهم في خدمة أعدائها . فهؤلاء ليسوا من أعضاء الجماعة . وعلى ذلك فإن أعوان العدو والمتآمرين على جماعتهم ليسوا ممن يخالفون الجماعة في الاجتهاد بل من الذين عمدوا إلى التدليس على الجماعة فتظاهروا زورا أنهم منها ولكنهم انضموا غدرا إلى أعدائها فلا يقال فيهم : دعهم لله يفعل فعله فيهم . وإنما يقال (أنزلوا فيهم عقاب الخيانة) . وكثيرا ما عبر بعض الغيورين على القضية الفلسطينية عن استنكارهم لبعض الأمور التي تحدث فقالوا : إن الخيانة ليست إحدى وجهات النظر التي نناقشها . فالخيانة لا يجوز حسبانها وجهة نظر . وليس أصحابها من فرقاء الساحة الفلسطينية . ولا هم ممن تعنيهم ولا تضمهم الوحدة الوطنية . ولهذا نجد القرآن الكريم في حين قال لنا : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة يقول لنا أيضا : إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون . وحاشا لله أن يكون هذا تناقضا في الذكر الحكيم . ولكن عبارة الأمة في الأمثلة الخمسة الثلاثة الأولى تعني القوم أصحاب الرأي المغاير لرأي جماعتهم شريطة أن لا

يخرجوا من الإطار العام للجماعة الذي يضم فيما يضم آمالها وأهدافها وتطلعاتها . أما عبارة الأمة في المثال الأخير فتعني الفئة المؤمنة المتحدة في عقيدتها وعبادتها . فهؤلاء مطالبون بوحدة الرأي ووحدة الموقف . وعليهم أن يصبروا ويتعاملوا بالحسنى مع أصحاب الآراء التي تخالف رأيهم ريثما يتدخل الله تعالى بطريقته فيرجح الرأي الأحسن والأصلح .

علينا أن نؤمن بهذين المعنيين كليهما : معنى قبول وجود المختلف عنا والتعامل معه ، ومعنى ضرورة العمل لإيجاد كتلة متحدة كالبنيان المرصوص تكون ذخرا وضمانة للوحدة الوطنية والمجتمعية . ويبقى السلم الاجتماعي شرطا جديرا بالحفاظ عليه وله أولوية لا يستهان بها قبل أي شرط آخر .

فإذا اختل ذلك الشرط الحيوي وفسد المناخ الاجتماعي وجب تركيز الجهود على إحلال الوفاق محل الشقاق . وذلك يتطلب انتهاج طريق الحوار على النحو الذي تتحدث عنه الآية الكريمة (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) . أي أن الحوار المطلوب يقوم على الإدلاء بالحجة دون تشنج ودون رفع الصوت بل بطريقة جميلة كما يتحدث المرء إلى أعز أحبائه .

يوصي القرآن بهذا المعنى في مواضع أخرى فيقول ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . ويقول : وجادلهم بالتي هي أحسن.

علينا إذن أن نؤمن بالتوجيه الذي يأمرنا بقبول الآخر المخالف لنا في الاجتهاد وأن يكون سبيلنا معه سبيل الحوار بالتي هي أحسن وإجراء المصالحات كلما نضج الحوار وآتى أكله الطيبة . وأن نؤمن في الوقت ذاته

بالتوجيه الذي يأمرنا بالحرص على وجود الكتلة المتراصة التي هي العمود الفقري لقوة الجماعة .

ويتطلب التسامح مع المخالفين صبرا وسعة صدر وبحثا مخلصا عن القواسم المشتركة . ولن يصعب على المؤمنين بأن الوحدة الوطنية شرط أولي للحفاظ على الكيان الاجتماعي أن يجدوا قواسم مشتركة بين نهج المقاومة ونهج المفاوضات . والواقع أن بين هذين النهجين علاقة أكبر مما يظن بعض السطحيين . ففي تجارب الشعوب المناضلة نجد أن الفييتناميين كانوا مستمرين في حربهم ضد الاحتلال الأمريكي أثناء مفاوضاتهم في باريس التي انتهت باندحار الأمريكيين وباستقلال فييتنام .

ومن كان له عدو كعدونا وجب أن تكون خشونته أبرز من لينه . ولا يجوز له أن يسلم أوراقه أو يعلن سلفا إن المفاوضات هي خياره الوحيد . لأن الذي يقول ذلك على أساس أن هذا الإعلان سيشجع العدو على الوصول إلى السلام إنما يفعل العكس تماما . فعلى الذين يريدون أن يسلكوا سبيل المفاوضات أن يقتنعوا أن هدفهم في وصول المفاوضات إلى النجاح لن يتحقق إلا بفضل المقاومة . وذلك أن العدو لا يتنازل للطرف الآخر عن شيء نزولا على المنطق السليم أو الحق المبين ولكن خوفا مما قد يلحقه به هذا الطرف من الأذى . وهكذا نكرر القول : إن العلاقة بين المقاومة وبين المفاوضات علاقة وثيقة بل إنها علاقة إلزامية إذا كان لأية مفاوضات أن تنجح .

إن هناك الكثير في نقاط السياسة المختلف عليها مما يسهل التفاهم حوله بين فريقي الخلاف الفلسطيني . وهناك بعض ما يبدو التفاهم والتوافق عليه صعبا

للغاية . ومن الواضح أن على الشباب أن يبذلوا محاولاتهم ومساعيهم الحميدة مع غيرهم من الشباب ومع المسؤولين أيضا في خصوص تقريب وجهات النظر واكتشاف القواسم المشتركة . ويتطلب هذا الأمر عمل دراسة عميقة من أجل هذه الغاية . لدينا قضايا إشكالية تتعلق باختصاصات كل من الرئيس وبقية السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية . ومع أن تلك الاختصاصات مفصلة في القانون الأساسي القائم فإن هناك خلافا في تفسير بعض المواد . وهناك إشكاليات تتعلق بالأجهزة الأمنية ومرجعياتها . وهناك إشكاليات تتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية وتفعيلها وإدخال الفصائل الإسلامية إليها بعد أن تغيرت الأزمنة وتغيرت الموازين .

هذه أمثلة مختصرة . وفي يقيني أن أية إشكاليات قانونية مهما كان نوعها فمن السهل التغلب عليها إذا توفرت نية التفاهم والوفاق . ولكن سوء النية المضمر يجعل من الحبة قبة . وكذلك هيمنة الأجانب والأمريكيين تحديدا على القرار الفلسطيني وتكبيل الإرادة الفلسطينية بالاشتراطات المالية .

أعود فأقول : لا مستحيل أمام إرادة الشباب الذين عزموا على تخليص بلدهم وشعبهم من الانقسام .

ومن الحق والصواب أن تصحيح الخطأ نفسه . الأول أولكل أنصار اتجاه وكان من جملة أغراض الفلتان الأمني إحداث موجات هجرة من داخل قطاع غزة إلى خارجه . ورافق ذلك وجود مكاتب تتمتع برعاية أمنية تقوم بتسجيل الراغبين في الهجرة إلى كندا وغيرها . وكان من الأغراض السياسية الأخرى للفلتان الأمني إدخال وهم في عقول الناس فحواه أن هذه الحالة لن تنصلح وأن مملكة الزعران لن تسقط إلا بأن يتولى دحلان شخصيا سلطة مطلقة في القطاع ويصبح قطاع غزة كيانا سياسيا مستقلا بديلا عن السلطة الوطنية الفلسطينية في المرحلة الأولى إلى أن يفرغ الإسرائيليون من الاستيلاء على

كل ما يريدون الاستيلاء عليه والبناء فوقه ثم يقذفون بالبقايا ويجعلون منها كيانا سياسيا آخر يتم إلحاقه بالكيان الأول ، على اعتبار أن الإسرائيليين نظروا إلى القطاع بمساحته الضئيلة وعدد سكانه الهائل نظرة تختلف عن النظرة إلى الضفة الغربية التي كانت السياسة الإسرائيلية ولا زالت تريدها أرضا متنازعا عليها تظل تقضم منها قضمة جديدة كلما توفرت لها إمكانيات القضم والهضم .

هكذا كان الفلتان الأمني رأس الحربة في مؤامرة ضخمة تجري أقسامها الأخرى في صمت كامل ، وفي لندن بشكل خاص التي فوضها بوش في تلك الآونة المتأخرة بإدارة ملف القضية الفلسطينية نظرا لانشغال الإدارة الأمريكية بشواغل أخرى وللثقة الكاملة بشخص توني بلير الذي يمكن نسبته ببساطة إلى صنف المحافظين الجدد أي الانجيليين المتصهينين .

لقد أدهشني كثيرا في فترة الفلتان الأمني وأحداثه المعروفة أن ألاحظ أن الفصائل الفلسطينية على اختلاف ألوانها صمتت تماما إزاء الفلتان الأمني وفرسانه الذين لم يكونوا مجهولين أبدا .

ثم تطورت الأمور تطورا آخر بعدما أحرزت حركة حماس فوزها المدوي في الانتخابات التشريعية ونزل ذلك الفوز نزول الصاعقة على رأس جميع أولئك الذين بنوا قصورا كثيرة في الهواء والذين اعتادوا على الإسرار للأمريكيين والإسرائيليين أنهم سيتصدون للاتجاه الإسلامي ويمنعوه من أي مستقبل ذي بال في السياسة ، وأنهم لن يلبثوا أن يصادروا أسلحته ويمنعوا صواريخه ويصفوا الحركة الإسلامية في قطاع غزة بين قتيل وسجين . وكلنا يتذكر أن المراسيم الأخيرة التي نصبت دحلان مقررا لمجلس الأمن القومي قد رافقتها

سلسلة من الإجراءات ذات الطابع الإعلامي التهجمي على حماس والمقاومة عامة ، وسلسلة أخرى من الإجراءات العسكرية التعبوية من قبيل تجنيد المئات في قوات حرس الرئاسة ، وإرسال البعوث التعليمية لتلقي دورات متقدمة في بعض البلدان العربية ، وشيوع الأخبار الإسرائيلية التي تحدثت بلسان رئيس الوزراء أولمرت عن إرسال أسلحة من إسرائيل إلى حرس الرئاسة . وفي تلك الآونة لم يبق شخص واحد في قطاع غزة يجهل أن مقر الرئاسة في غزة صار بمثابة غرفة عمليات تجهز عسكريا وإعلاميا للانقلاب على شرعية المجلس التشريعي وتصفية القوة العسكرية لحماس . وصار حرس الرئاسة عنوانا للاستعدادات القائمة ليوم الحرب الأهلية القادمة ودخل إلى حرس الرئاسة جميع العناصر الأكثر حقدا وتعبئة ضد حماس .

ومن هنا قلت دائما وأقول عن تجربة وعلم مؤكد أن حماس عندما ضربت ضربتها فإنها هاجمت قبل أن تهاجم وأنها لم تنقلب ولكنها أجهضت انقلابا كان يرمي للانقلاب على المجلس التشريعي المنتخب وعلى حكومة الوحدة الوطنية . ولقد نشرت هذا في الصحف وقلته في القنوات الفضائية والإذاعات . وسبق أن تعرضت لحملات دعائية لتشويه شخصي قبل هذه المناسبات كلها عندما كنت أدين أعمال هذه المافيات في المجلس التشريعي . ولكنني بعد هذه التصريحات تعرضت لحملات أقذر كثيرا . وقد أشيع ضدي بواسطة أبواق مأجورة من بقايا فلول تجار الفلتان الأمني أنني تلقيت أجرتي من حماس وأنني أسعى إلى منصب لديها . وتلك هي أخلاق هؤلاء الأقزام الذين يقيسون الناس على قدر عقولهم وبواعثهم وحوافزهم .

نعود إلى موضوعنا الذي نحن بصدده : وأرجو أن لا تدهشوا إذا قلت لكم إن التحليل المنطقي يشير للأسف إلى أن رأب الصدع بين غزة ورام الله متعذر تماما . فغزة ومناهجها تعتبر أن الجهاد والقوة والجرأة والمغامرة والتمسك بالحق هي الموقف الشرعي الذي لا خيار سواه وهو الجدير بالشعب العربي الفلسطيني صاحب الحق في بلاده . ورام الله ومناهجها تعتبر أن الاتكال على المفاوضات وعلى الشرعية الدولية وعلى التمويل الأجنبي هو الكفيل بإيصالنا إلى ما يمكن أن يقدموه لنا وما يؤهلنا له مبلغنا من القوة أو في الحقيقة ما نحن عليه من الضعف . وحكمتهم المفضلة أن عصفورا باليد خير من عشرة على الشجر .

لدينا على الجانب الآخر احتلال إسرائيلي قام بتصميم استراتيجيته في المنطقة العربية الإسلامية على مبدئين :

الأول . أنه يجب أن يكون قويا وأن يظل أقوى من مجموع القوى العربية والإسلامية في المنطقة ليضمن بقاءه الدائم وسيطرته على الجميع . عالما أن الجميع ينظرون إليه بوصفه كيانا غاصبا ومعاديا .

والثاني . أنه يجب أن يحصل على حصة من خيرات المنطقة وأولها النفط والمياه ليضمن موردا محليا ثابتا من الثروات تضاف إلى موارده القادمة من الغرب لا سيما من الولايات المتحدة .

أما نحن الفلسطينيين فتقوم سياسات الاحتلال التفصيلية المتطابقة مع هذه المبادئ الكبرى على مجموعة من السياسات أولها التحكم في لقمة عيشنا عن طريق إلحاقنا باقتصادياته . وقد صارت تلك السياسة ممكنة له بعد حرب حزيران ١٩٦٧ عندما فاز في الحرب وأغلق حدودنا مع الدول العربية المجاورة

بما يرافق ذلك من فصرنا في بطن الحوت . ومن سياساته أيضا استخدام وسائل استخبارية واقتصادية وإدارية واجتماعية وعسكرية لترحيل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين خارج بلادهم . ومن تلك السياسات الإجرامية استخدام الضغوط السياسية لحمل الفلسطينيين على القبول والتوقيع على حل سياسي ينهي الصراع في جزئه الفلسطيني فيصبح إنهاؤه في العالم العربي والإسلامي تحصيل حاصل . وهذا الحل الذي تعمل السياسة الإسرائيلية على تجريعنا إياه يتضمن بقاء السيطرة الإسرائيلية على

الفلسطينيين عمليا وواقعيا عبر تسليم السلطة إلى عملاء للاحتلال أو تكبيل الكيان الفلسطيني المستقل ظاهريا بسلسلة شروط وأوضاع تجعله مرتبطا بإسرائيل خاضعا لإرادتها تماما في واقع الأمر .

لقد اتخذ الإخوة في رام الله موقفا عجيبا . فاتهموا حماس بما كان يجدر أن يتهموا به أنفسهم واتبعوا في ذلك المثل القائل رمتني بدائها وانسلت . ولو أنهم عادوا إلى الحق واستنبطوا الدروس مما فعلوه سابقا لعرفوا أن من الحماقة والفشل أن تقوم الشرعية على المافيات والعصابات التي سبق أن جعلوها أداتهم في الحكم وهي اليوم أداتهم في استكمال الخطة الأمريكية الإسرائيلية لإعادة محاولة الانقلاب على حماس في قطاع غزة ، وزرع العبوات المتفجرة في الشوارع والأسواق والاحتفالات وإشاعة الشائعات والغرض من ذلك كله تثوير الجماهير الواسعة على حكومة هنية وعلى كتائب القسام. وليس هكذا تفعل الشرعية . كما أن شروطها السياسية التي أعلنتها في القاهرة مؤخرا للانخراط في الحوار مع حماس ليست إلا الرفض بعينه . وليس لها من سند

تستند عليه في الحقيقة إلا الأمريكان وإلا الاحتلال . وما استمرارها في تأييد الحصار على قطاع غزة إلا إضرار بالشعب الذي تدعي أنها تمثله .

إن الوضع السياسي للقضية الفلسطينية اليوم يتلخص في إشغال الفلسطينيين عن المسائل الكبرى كالتحرير والعودة وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن وفي إشغال قوات المقاومة عن أنشطة الصراع بشيء واحد فقط هو لقمة العيش وهمها المقيم. لا بل ويريد أعداؤنا أن يعمل بعض المشبوهين قادة المافيات لخدمة أغراض أعدائنا الذين ييسرون لهؤلاء المشبوهين مصالحهم المالية وذلك مقابل أن يفتعلوا في المجتمع الفلسطيني حالة استنزاف ذاتي مستمر .. على الصعيدين الدموي والدعائي . وقد سجلوا نجاحات كبرى على الصعيد الدعائي ، فشقوا الشعب شقين منفصلين وظهر الانشقاق في جميع المجالات حتى في مجال الأسرة الواحدة بين أفرادها الذين تجمعهم صلة الرحم القريب

وهذا ليس بالغريب على جماعة رام الله الذين يعملون بوحي القوى المعادية والذين وضعوا بيضهم كله في سلة الأمريكيين ، ولكن التزامنا بكلمة الحق وحدها يدفعنا إلى قول كلمة بصدد الإخوة في حماس . وتتلخص كلمتنا في بندين اثنين : الأول أن على جميع القوى الوطنية ولا سيما القوى الشبابية أن تساند حماس ضد الانقلاب الذي تحاوله إسرائيل والولايات المتحدة والأطراف الأخرى بمن فيهم المافيات التي ما زال مسموحا لها أن تقود النشاط السري التخريبي باسم رام الله ونظامها .والثاني أن على حماس أن تقف وقفة مراجعة أمام ثلاثة أخطاء خطيرة تمارسها . أما الخطأ الأول فهو الحكم باطنيا على من ليس معهم بأنه منحرف من الناحية الدينية أو أنه لا يسير على الطريق

القويم . وقد يبالغ بعض المتشددين والمتعصبين في الحكم على عناصر صديقة أو يجب بطبيعة الحال أن تكون صديقة فيصنفونها في خانة الأعداء ، الأمر الذي قد يجعلها كذلك بسبب ردة الفعل لديها . وأما الخطأ الثاني فهو تطبيق مقولة من ليس معنا فهو ضدنا أو على الأقل لا يحبنا وعلينا بالتالي أن نعامله بالجفاء والقطيعة. وأما الخطأ الثالث فهو إيثارهم الحمساويين بالعطايا والهبات سواء على صعيد الوظائف أو التموين أو بقية الامتيازات ، وهذا الإيثار كان جائزا أيام كانت حماس تنظيما مضطهدا في المعارضة وكان أنصارها محرومين من عطايا الحكومة وملاحقين من قبل الأجهزة الأمنية . أما بعدما صارت حماس حكومة الجميع فقد أصبحت بحاجة إلى سياسة أخرى .

إنني أدعو الإخوة في حماس إلى التراجع عن هذه الأخطاء . ليس على مستوى القيادات وحسب ولكن على مستوى القواعد التي يجب أن تتلقى تعبئة وتوجيها معنويا يقوم على أن الطليعة لا يمكنها أن تعتمد على نفسها فقط ولا أن تكون بديلا عن الجموع غير المنتمية لها . فالمهام التي تنتظرها تحتاج إلى مساندة غالبية الناس . وأخطر تلك المهام تفكيك المافيات التي ما زالت كامنة وتنتظر يوما تعود فيه إلى ممارسة نشاطاتها الإجرامية وتحقيق أرباحا الفاحشة . وأقول بصراحة تامة : إن أحدا لا يستطيع أن يقوم بذلك إلا حماس . وأضيف أيضا إن حماس لا تستطيع أن تقوم بذلك إلا إذا حشدت الأغلبية لهذا الغرض . وعلى حماس ألا تسقط في فخ الانشغال بالقضايا التي تفرض عليها فرضا وأن لا تعمل وفقا لآليات ردة الفعل .

.....

إن للشباب دورا أي دور في مقبل الأيام . فعليهم أن يقفوا سدا منيعا أمام الاستراتيجية الصهيونية . الأمريكية . الأوروبية . التي يشارك فيها بعض العرب والمسلمين ، وغايتها هي إسقاط حكومة حماس .

وقد تلقى دعايات هذه الجبهة الصهيوأمريكية قبولا عند العديد من شرائح الشباب . إذ يقال لهم : لا مستقبل ينتظركم في ظل هذا الحكم وهذه الحكومة . فلا مجال للوظائف والتوظيف . ولا مجال للمال والأعمال . ولا مجال للصناعة والزراعة . فالحصار قدر مطبق محتوم . وإغلاق المعابر معناه القضاء المبرم على المستقبل . وكيف للشباب أن يؤسس لمستقبله الاجتماعي فيتزوج ويسكن وينفق على بيته ويأمل في التقدم في الحياة إذا كانت البطالة في انتظاره والمعطيات كلها تؤكد انسداد الأفق ؟

هكذا يوحى في أوساط الشباب . وهكذا نشطت مكاتب التهجير علنا وسرا حسب المراحل . والتهجير كما نعلم جميعا هو واحد من أبرز سياسات إسرائيل منذ نشأت حتى اليوم . وجميع سياسات الاحتلال تصب في خانة التهجير . وسبق للمجرم الصريع الحاخام مائير كاهانا أن أسس حزبا باسم حزب الترانسفير أي التسفير أو الترحيل أو النقل . ولم يكن تأسيس ذلك الحزب إلا مجاهرة وقحة بسياسات دأبت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على إدارتها دون أن تسميها باسمها .

لقد تكلمت رابطة العلماء عن حرمة الرحيل عن قطاع غزة باعتبار أن الرحيل ما هو إلا تولية الأدبار . ولا شك أن في الرحيل استسلاما لليأس وبحثا عن المصير الشخصي بعيدا عن المصير العام . والآية الكريمة تقرر أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

فما هي روح الله التي تلوح لنا يا شباب ؟ لا شك أنها الرزق الذي يأتيك من حيث لا تحتسب . وانفتاح السبل الذي يفاجئك عندما تضيق بك الآفاق . وتفتق ذهنك عن فكرة موفقة وخطة سديدة ومشروع مربح . وذلك كله هو مما يحاول تحقيق شيء منه عمليا بعض إخوتكم في مشروعات صناع الحياة التي استلهموها من مزيج من إيمانهم وثقتهم بالله من ناحية وعلم العلماء وأبحاث الباحثين من ناحية أخرى . لقد أقاموا مشروعات للتنمية . وبحثوا عن النواحي التي تتصدى للسياسات الاحتلالية المدمرة فأخذوها بالحسبان . ووفروا فرص عمل لبعض الشباب .

إن تجربتهم ما تزال في مراحلها الأولى . وهي بحاجة إلى رعاية من القطاعين الأهلي والحكومي . فلا يمكن للتصميم على الثوابت والتمسك بخيار المقاومة أن ينجح عمليا إلا إذا وجدت خطة شاملة لتعبئة الموارد وتنشيط مشاريع التنمية الأساسية ، ووجدت السواعد التي تمارس هذه المشاريع بروح تطوعية سامية تبدو شرطا أوليا لحلول بركة السماء ومعجزتها لأن المعجزة لا تحل إلا بصفاء النية والأخذ بالأسباب أولا كما تعلمون .

إن المشاركة في إحداث التنمية أولى المهام والمسؤوليات التي تقع على سواعد الشباب . وفي رأيي أن من المسائل التي يجب أن تكون موضع اهتمام كبير من قبل الشباب المساعدة في إعادة صياغة الوحدات الاجتماعية في الأحياء والحارات والشوارع والأزقة على نحو جديد يخدم فكرة المقاومة ويصفي الإرث الثقيل .. إرث المافيات وعصابات السرقة والنهب والقتل والخطف وبؤر المخدرات والاتجار بها وبالخمور . لقد اجتهدت قيادة الأمن الوقائي سابقا في تعميم مؤسسة فرقة الموت في البلد ونظرت إلى عصابات الحارات نظرتها إلى

مشاتل تحصل منها على المادة الخام للنموذج من الحكام الذين نشؤوهم على القتل والنهب وانتزاع ما في أيدي الناس وسوسهم بالقوة لتنفيذ السياسات المضادة لمصالحهم والتي تلقوا التعليمات بها من طرف العدو اللدود .
لقد وصلت الأمور في قطاع غزة قبل الحسم العسكري الذي نفذته حماس إلى درجة غير مسبوقة من فساد الحكم وفقدان الأمن والأمان . كما كان الوضع الاقتصادي للناس
كان من المهام الوطنية الأساسية سواء على عاتق حماس أوغير حماس من الفصائل التي تسير على نهج قويم أن إذا وصلت إلى الحكم وكانت

ونحاول البحث عن السبيل المؤدي إلى إصلاح الأمور وإعادة اللحمة .
فقد تشكل لدي اقتناع بأن إبداء الحزن أو الأسف أو الاستنكار بصورة عامة وأن إدانة جميع الأطراف على قدم المساواة لا يعدو أن يكون موقفا سطحيا لا طائل من ورائه.

ولا بد أولا أن أذكر المستمعين بصورة الوضع الذي كان يسود قطاع غزة قبل منتصف حزيران . فأقول : إن السلطة كلها في ذلك الحين كانت بيد محمد دحلان وشركاه . وذلك بتفويض كامل وبموجب مرسوم رئاسي من قبل الرئيس محمود عباس . فقد عينه مستشاره للأمن القومي ومقررا لمجلس الأمن القومي . ولم تكن هذه المراسيم الرئاسية إلا الغطاء الرسمي لأمر واقع سابق عليها . فرئيس السلطة الوطنية الفلسطينية الذي اعتاد المكوث في رام الله ولم يحضر إلى قطاع غزة طوال فترة رئاسته إلا ثلاث أو أربع مرات كان قد فوض

صلاحياته عمليا إلى دحلان وإلى قيادة الأمن الوقائي وعلى رأسها شريك دحلان الأساسي رشيد أبوشباك . وكان قد سبق للرئيس عباس أن فوض دحلان بصلاحياته في وزارة الداخلية أيام ترؤس عباس الوزارة في عهد الرئيس عرفات وسماه وزيرا للأمن الوطني . وعلينا أن نتذكر أن تغيب الرئيس عباس اختياريا عن قطاع غزة على هذا النحو سبقه التغيب الإجباري للرئيس السابق الشهيد ياسر عرفات أي ان

أما الحالة التي سادت قطاع غزة أثناء هذا الوضع الرسمي الذي آلت فيه جميع السلطات الأمنية إلى هذه الشخصيات فهي الحالة التي أطلقوا عليها اسم (الانفلات الأمني) . وبودي أن نتذكر جميعا تلك الأيام لا أعادها الله ولا أعاد المسؤولين عنها . وعلى الذين يعانون ضعف الذاكرة أن يرجعوا إلى أرشيف أية صحيفة فلسطينية ويقلبوا الصفحات الأولى من الأعداد الصادرة خاصة منذ عام ٢٠٠٢ حتى منتصف حزيران عام ٢٠٠٦ ليروا كيف بدأ في قطاع غزة التفلت الأمني وأحداثه المشؤومة وكيف تطورت وتفاقمت سنة بعد سنة حتى عم قطاع غزة في العام الأخير من تلك الفترة المظلمة إحساس كامل بفقدان الأمن الجماعي والفردي بحيث لم يعد الناس يخرجون من بيوتهم إلا للحاجة الضرورية . ولم يعد أحد يتأخر مساء بعد المغرب إلا فترة أقصاها ساعة . ذلك أن مناطق القطاع كافة ومدينة غزة بخاصة صارت تعاين عددا متزايدا من قضايا القتل والجرح والخطف والسطو والاعتداء على القضاة وأفراد النيابة والشرطة كما شاع أسلوب البلطجة والاستيلاء على المال العام عقارا ومنقولا ومالا سائلا والاستيلاء على ممتلكات الناس . كما شاعت الرشوة

والاستقواء بالمسلحين في كل أمر كالمشاجرات الشخصية والعائلية وكقضاء المعاملات في الدوائر الحكومية وغير ذلك كثير .

ومع أن مخاطبكم ليس ممن يحبون التفاخر بالذات وبالإنجازات الفردية فإنني سأقول لكم بلا فخر إنني في ذلك الحين لم أصمت كجمهرة الصامتين . فكتبت في مقالاتي الأسبوعية التي كنت أنشرها يوم الاثنين في جريدة الحياة الجديدة أفضح حقيقة هذه الأحداث التي أطلق عليها اسم (الفلتان الأمني) ورأيت أن هذه التسمية نفسها بهذه الصيغة مساهمة في التستر على الذين يقفون وراء هذا الفلتان . واقترحت تسميته بالتفلت لكي يكون فيه إيحاء بأن وراءه فعل فاعل وأن من واجب السلطة أن تكشف الفاعلين وتقدمهم للمحاكمة . ونبهت باختصار إلى أن الفلتان الأمني مشروع مالي يديره بعض العاملين في الأجهزة الأمنية ويكسبون من ورائه الملايين . وأبسط مثال على ذلك أعمال الخطف التي كانت تنتهي دائما بابتزاز بعض الناس أو ابتزاز الحكومة نفسها بمبالغ فاحشة من المال . أما أعمال القتل التي يقوم بها قتلة محترفون فكانت مقابل تسعيرات معروفة يعرضها القتلة على من يرغب أن يكون من زبائنهم . وقد ارتكبت بعضها بواسطة عشرات أو مئات الأفراد وفق خطة عمليات منظمة ومع التوافق والتواطؤ مع مقرات أمنية وقادة أمنيين وسياسيين .